

فلسطين وصحوة الوعي الغربي في زمن الإبادة



لم تكن غربتا تونبرج، كحالة ملأت الدنيا وشغلت الناس، الأولى من نوعها، سبقها في الواقع أمثلة أخرى، من جانيت لي ستيفنز (مذبحة صبرا وشاتيلا) إلى راشيل كوري (الوقوف في وجه الجرافات)، لكن حالة غربتا تونبرج مثلت في رمزيتها تعبيراً عن معنى آخر جديد، ربما يشبه صحوة في دعم سردية القضية الفلسطينية في الغرب على يد جيل من الشباب لم يراهن عليه أحد، جيل زد (1997-2012).

في الماضي، ارتبط دعم القضية الفلسطينية غربياً بتوجه يساري أمميّ ومن خلال شبكة من الارتباطات بين الجماعات اليسارية والأناركية ومقاومي منظمة التحرير الفلسطينية، حيث أفادت الجماعات اليسارية والأناركية من الخبرة العسكرية الفلسطينية في التدريب في معسكرات في الأردن ولبنان، ولكن لم تنجح القضية في النهاية أن تتخطى كونها همّاً نخبويّاً - بالنسبة للشباب الغربي - وقد ارتبط في الأذهان بكون دعمها صورة من صور دعم الإرهاب، بسبب عمليات مثل ميونيخ 1972 أو خطف الطائرات، أو حتى الجماعات التي تدرت في معسكرات منظمة التحرير مثل "بادر ماينهوف" الألمانية، والتي ارتكبت العديد من الأعمال الإرهابية داخل ألمانيا الغربية.

تُعبّر حالة الصحوة الشبابية في دعم القضية الفلسطينية عن نشوء نظام بيئي معرفي جديد في العموم، يرتبط بالتححرر من أسر القنوات المعلوماتية التقليدية في تناول العديد من القضايا، ليست القضية الفلسطينية وحيدة فيها، ولكنها استطاعت أن تفرض وجودها - لسوء الحظ - بسبب عامين من الإبادة في قطاع غزة. وإن جاز لأحد أن يُطلق على ذلك التغير في الوعي الشبابي الغربي تجاه القضية الفلسطينية مسمى "صحوة"، فما الذي يؤيد كلامه فعلياً؟

نظام بيئي معرفي جديد

استطاعت حالة الحرب تلك في زمن الوسائط الفائقة (Hypermedia) أن تخلق نظامها البيئي المعرفي الجديد (Ecosystem Information)، والذي ساعد كثيرًا على تغيير السردية وأفسح مجالًا لأصوات جديدة ناطقة. نحن نرى تراكمًا معرفيًا لجيل الكبار عن القضية الفلسطينية خلقت وسائل إعلامية تأثرت بقرار رونالد ريغان في إلغاء عقيدة الإنصاف (Doctrine Fairness The) في المجالات الإعلامية، التي سمحت فيما بعد بظهور مروحة من قنوات اليمين مثل فوكس نيوز، ولكنها سمحت أيضًا بظهور قنوات مثل سي إن إن وMSNBC، اللتين قدمتا معرفة عن القضية الفلسطينية في أقصى صورها الحيادية، لا تُقدم سردًا منصفًا للفلسطينيين وعدالة قضيتهم.

في المقابل، كان لجيل زد (2012-1997) فضاؤه المعلوماتي الخاص، الذي ظل يخلقه مستفيدًا من أداة إخبارية مستحدثة وتكنولوجية إلى أخرى. تُعبر لحظة الحرب في 2023 عن تطور ما بات يُعرف، في أعقاب ثورات الربيع بالتحديد، باسم "صحافة الموبايل"، حيث يُصبح الجمهور من خلال تصوير الحدث هو صانع الخبر وناقله. فما إن وصلنا في زمن الحرب على غزة 2023 بالتوافق مع ثورة تطبيق تيك توك في العالم، كانت صحافة الموبايل بإمكانها أن تصل إلى مدى غير مسبوق من القدرة على صناعة المحتوى الإخباري، بشكل جذاب ومُتقن وغير مُفلتر بالعديد من فلاتر السياسات التحريرية للقنوات الإخبارية التقليدية. وبذا، أصبح التيك توك نافذة إخبارية مستقلة، وراдикаلية في جوهرها، حيث لا مُذيع أو سكرت أو أجنحة سياسة تحريرية. فمن خلال تيك توك، الضحية هي التي تتكلم، والجاني أيضًا يستطيع الكلام، ولكنه أثبت فشله في ترويح سرديته من خلال تلك المنصات.

ما ميّز التيك توك أو الإنستجرام، أن المحتوى الإخباري فيهما يخلق نوعًا من التعاطف الفوري يتجاوز التحليل الجيوسياسي المُعقد، فحينما يُشاهد المتلقي المأساة الإنسانية دون وسيط خبري يقوم بإعادة الصياغة من خلال المونتاج مثلًا، أو إدراج مشهد ما في سياق معين، فإن هذا يحدث أثرًا إنسانيًا مباشرًا وأقوى في نفس المتلقي، حيث نجحت سرديات الفلسطينيين الشخصية، أو مراسلي منظمات المجتمع المدني الناشطة في مجال المساعدات، في أن تخلق جبهة حرب رقمية جديدة على السردية.

كان لفلسطين نصيبها فيه من النجاح، حيث راجت مصطلحات كانت تُعد أكاديمية نخوية هامشية مثل "الأبارتهيد" و"الاستيطان" و"المستوطنات" بفضل سرديات التيك توك التي تخلق عالمها الإخباري الخاص. وفي الواقع، قد ظهر هذا الأثر حتى بعيدًا عن فلسطين، ففي ثورة نيبال التي حرّكها متظاهرون من جيل زد مؤخرًا، اعتمدت في حشدتها، كما يُظهر تقرير من "PBS" الأمريكية، على مشاركة فيديوهات من قصور الأغنياء ونمط معيشتهم في وجه أحياء الفقراء، كانت وحدها كافية للتحشيد والتجيش. صراع أجيال..

يمكن لبحث أجراه مركز "بيو" للأبحاث تحت عنوان "صغار السن في أمريكا يعبرون عن رأيهم تجاه حرب إسرائيل/حماس" أن يُظهر لنا كيف باتت فلسطين تُمثل حيّزًا لصراع الأجيال الثقافي في الغرب. في فبراير من عام 2024، استطلعت آراء قرابة 13 ألف شخص في الولايات المتحدة تجاه "الحرب" في الشرق الأوسط، وقد اتضح أن الأمريكيين الأصغر سنًا يقفون إلى جانب فلسطين أكثر من "إسرائيل"، حيث إن ثلث البالغين الذين تقل أعمارهم عن 30 عامًا أظهروا تعاطفًا كليًا مع الشعب الفلسطيني، بينما كان 14% فقط من المتعاطفين مع الإسرائيليين، والباقي ارتأوا موقفًا محايدًا في تلك القضية أو أنهم غير متأكدين. وفي التحليل الأيديولوجي لتلك الفئة، يتضح أن الجمهوريين والمستقلين يميلون إلى "إسرائيل" بنسبة 28% مقابل 12%، بينما يتعاطف الديمقراطيون مع الفلسطينيين بنسبة 47% إلى 7%.

View this post on Instagram

A post shared by نون بوست | NoonPost (@noonpost)

على العكس، يقف الأمريكيون الأكبر سنًا إلى جانب "إسرائيل"، فالأشخاص الذين تبلغ أعمارهم 65 عامًا فما فوق، يؤيد 47% منهم بشكل كلي "إسرائيل"، في مقابل 9% أظهروا تعاطفًا مع المسألة الفلسطينية. هناك ملمح لافت للنظر أيضًا في ذلك البحث، فالنظرة الإيجابية للشعب الإسرائيلي في فئة تحت 30 عامًا قد انخفضت عن عام 2019 بنسبة 17 نقطة مئوية، بينما حافظت وجهات النظر تجاه فلسطين على ثباتها.

ويتمثل الصراع الجيلي الثقافي داخل مجتمع اليهود الذين استطلعتهم الدراسة كذلك، فاليهود الأصغر سنًا يقفون ضد الحرب أكثر بكثير من اليهود الأكبر سنًا، والجدير بالذكر أن تلك الفئة من الشباب التي تؤيد حق الشعب الفلسطيني في النضال، لا تؤيد بالضرورة الطريقة التي اتبعتها حماس في السابع من أكتوبر، حيث يرى 58% من الشباب أن "هجوم" حماس غير مقبول بالنسبة إليهم. كذلك ترى أكثرية صغار السن الذين استطلعتهم الدراسة، أن انخراط أمريكا في دعم "إسرائيل"، خصوصًا بشكل عسكري، أصبح يشكل عبئًا أخلاقيًا على بلادهم ولا يمكنهم الموافقة عليه، وفي المقابل يؤيد 56% من كبار السن المُستطلعين الدور الذي تلعبه الولايات المتحدة في دعم "إسرائيل".

وفي بحث آخر، أجره مركز "بيو" أيضًا، نُشر في أكتوبر 2025، يُستهدف رؤى الأمريكيين بصفة عامة بعد عامين من الحرب، لم تحقق السردية الإسرائيلية نتائج أفضل. فقد رأى 39% من المُستطلعين أن "إسرائيل" ذهبت بعيدًا جدًا في عملياتها العسكرية ضد حماس، بزيادة عن 31% في عام 2024 و27% في أواخر عام 2023. بينما أبدى 59% رأيًا سلبيًا تجاه الحكومة الإسرائيلية، بزيادة عن 51% في أوائل عام 2024. ما يُظهره هذا البحث المُستحدث، ضمن أمور أخرى أوسع، أن 70% من الديمقراطيين باتوا ينظرون بإيجابية تجاه الشعب الفلسطيني، مقارنة بـ 37% من الجمهوريين.

في ميزان التأثير السياسي

هل يخلق هذا تغيّرًا في التوجهات السياسية على المدى البعيد؟ ربما لم تؤثر المظاهرات في عموم شوارع العالم الغربي على آلة القتل الإسرائيلية التي أتمت مقتلها دون أي رادع، إلا أن المظاهرات أثرت على قرارات حكومات الكثير من دول أوروبا تجاه "إسرائيل"، وإن كان ذلك التغيّر في علاقتها ما زال في مرحلته الجنينية مقارنة بكمّ المصالح والاتفاقيات التي تجمع "إسرائيل" بأوروبا، على هامش تلك الصفقات من الأسلحة أو شحنها التي تم تعطيلها، أو القرار بالاعتراف بدولة فلسطينية في 13 دولة غربية منها بريطانيا وفرنسا وإسبانيا وأستراليا. لكن، التعويل على الأمل في التأثير على سير السياسات، أو أن تكون قوة ضغط المتظاهرين على الحكومات هي في حد ذاتها "لوبي فلسطيني" موازٌ لنظيره الصهيوني المؤثر، يستند في الواقع إلى بعض الوقائع.

لقد أثارت قضية فلسطين الانقسام داخل الحزب الديمقراطي الأمريكي. لقد رأينا في خضم الحملة الانتخابية 2024، انبثاق حراك جديد تحت شعار "غير ملتزم" الذي ندد بمواقف الرئيس بايدن ونائبته كامالا هاريس من القضية الفلسطينية، وربط دعمها للمرشحين عن الحزب الديمقراطي بموقفهم من القضية الفلسطينية، وقد استطاعت أن تحصل لنفسها على 36 مندوبًا داخل الحزب الديمقراطي الأمريكي.

وفي أغسطس من عام 2025، صوت 27 من أصل 47 ديمقراطيًا في مجلس الشيوخ الأمريكي لمنع إرسال معدات عسكرية أمريكية إلى "إسرائيل". وفي مجلس النواب، كان مشروع قانون يدعو إلى حجب الأسلحة الهجومية الأمريكية عن إسرائيل لديه من الرعاية الديمقراطيين ما يصل عدده إلى 35 نائبًا. ولقد دعا عضو منتخب في اللجنة الوطنية الديمقراطية حديثًا في أغسطس كذلك، بكل صراحة، إلى قرار في غزة يدعو الحزب الجمهوري إلى دعم وقف فوري لإطلاق النار في غزة وتعليق المساعدات العسكرية الإسرائيلية، ويدعو أعضاء الكونغرس للضغط للاعتراف بفلسطين كدولة. ولقد أثارت تلك الحزمة من

القرارات غضب الأغلبية الديمقراطية من أجل إسرائيل، في بيان شديد اللهجة اعتبر أن قرارات كهذه قرارات معيبة وغير مسؤولة ومن شأنها أن تزيد زرع الانقسام داخل الحزب.

فلسطنة الثقافة

في نوفمبر 2023، وبعد شهر من الإبادة، أطلقت مجموعة طموحة من 350 ناشراً، منهم 40 دار نشر بريطانية على رأسها الدار العريقة "فيرسو"، حملة "اقرأ فلسطين"، والتي هدفت لإتاحة مجموعة من الكتب والروايات مجاًاً على الإنترنت باللغة الإنجليزية ولغات أخرى من أجل دعم حملة وقف إبادة الشعب الفلسطيني.

كانت تلك الحملة الطموحة بداية لعامين، ربما خضعت فيهما الحرب الثقافية بين "إسرائيل" وفلسطين إلى عملية "فلسطنة"، حيث تصدرت السردية الفلسطينية من خلال تمظهرات عديدة المشهد الثقافي، خاصة بين الشباب. اعتمدت الثقافة ونشر السردية الفلسطينية على عملية تعاطف مباشر كذلك، من خلال نشر التجارب الشخصية. تُرجمت قصيدة الشهيد رفعت العرعر لعشرات اللغات وأصبحت شعراً رمزياً عن إبادة الشعب الفلسطيني. وفي عام 2024، أصبح كتاب "مختبر فلسطين" للكاتب أنتوني لوينشتاين من أكثر ستة كتب مبيعاً في العالم. كذلك استقبل العالم في مطلع 2025 يوميات الصحافية الفلسطينية بلستيا العقاد "عيون غزة من سيدني إلى بريطانيا" في أكثر من ندوة، وُشر الكتاب باللغة الإنجليزية وغطته صحف كبرى مثل الجارديان وواشنطن بوست.

لكن الأثر الأكبر الذي يُمكن ملاحظته حقاً، يكمن في الأثر السينمائي والموسيقي؛ استطاع فيلم "لا أرض أخرى"، الذي يرصد عملية الاستيطان في الضفة الغربية، الحصول على جائزة الأوسكار بعد رحلة من الحفاوة مسبقاً في مهرجان برلين والفيلم الأوروبي. وأظهرت مأساة الطفلة "هند رجب" مدى التكتاف وراء القضية الفلسطينية في الأوساط السينمائية الغربية، في فيلم "صوت هند رجب" الذي حصل على تصفيق متصل لمدة 23 دقيقة في مهرجان البندقية وجائزة الأسد الفضي، وأيضاً اشترك في إنتاجه نجم هوليوودي بحجم براد بيت، وهي لافتة بسيطة، ولكن لها رمزية مؤثرة ومعبرة.

كذلك استطاعت حفلة "معاً من أجل فلسطين" في ملعب ويمبلي، الأهم في إنجلترا، أن تجمع حشداً تاريخياً من الشباب في الحفلة، جمع 1.7 مليون يورو من أجل التبرع للمساعدات الإنسانية في فلسطين. كذلك الدبكة والكوفية الفلسطينية، التي تحولت إلى شعار لمظاهرات الشباب وطلاب الجامعات في أوروبا، تحولت لأن تكون ظاهرة ثقافية، غطتها باهتمام العديد من التقارير مثل تقرير شبكة "إن بي آر".

ربما يبدو للوهلة الأولى أن تلك الأشياء لا تعني شيئاً في الميزان إلى جانب دماء طفل في غزة، وهي كذلك. ولكن أهمية "فلسطنة" الثقافة، والتي وعت إليها "إسرائيل" جيداً، ولذلك تعيد التمترس في عملية دعم السوشيال ميديا من جديد بعدما استغرق الأمر منها عقوداً.

ونقول نُعد أهمية الثقافة، في أنسنة الفلسطيني في الوعي الغربي، والأنسنة هنا لا تجعل الفلسطيني مجرد ضحية أو فاعلاً سلبيًا، ناهيك عن كونه إرهابياً كالتصور الكليشيبي الذي صمد سنوات، بل تُعبر عن شعب له ثقافة وفنون، شعب نابض بالحياة، فلذلك هو يستحقها، ولذلك يحتج الشرفاء في كل مكان في العالم من أجل قضيته.